

مقدمة

من رغباتي التي كنت أرددها في نفسي كلما راجعت أسماء الكتب التي أترقب الفراغ لتأليفها، أن أدرس تاريخ الدعوة الدينية كما تجلت في رسالات أكبر دعائها في العالم الإنساني: إبراهيم الخليل وأبنائه، والكليم، والمسيح، ومحمد - عليهم السلام.

هذه الظاهرة الإلهية - دعوة النبوة - ظاهرة فريدة في العالم الإنساني لم تظهر بين الأمم في غير السلالة السامية، ولا بد لها من سبب تكشف عنه دراسة النبوات في هذا الأمام.

وسببها من جانبها التاريخي فيما ظهر لنا من المقارنة الطويلة بين الديانات، أن النبوات الكبيرة كانت ترتبط بمدن القوافل؛ لأنها بيئة وسطى بين الحضارة والبداءة، وكذلك كانت أور، وبعلبك، وبيت المقدس، ومكة، ويثرب، ومدّين، ومحلات الطريق فيجنوب فلسطين وشمال الحجاز، وهي بيئات لا إلى حضارة المدن التي تعول في تشريع الحقوق على نظام الدولة، ولا إلى بداءة الصحراء التي تعول في تشريع الحقوق على سنة الثأر والغلبة، ولكنها - مدن القوافل - وسط بين الجانبين، مع حاجتها إلى تقرير الحقوق في كل لحظة، لدوام المعاملات واشتراكها، ولكثرة الطارقين ذهاباً وإياباً، ممن يجدون المال، ويبحثون عن المتعة العارضة، ويحاول كل منهم أن يغلب صاحبه في سوق الأخذ والعطاء، وحلبة الخداع والادعاء.

ولهذا تترقب مدن القوافل مصدراً للهداية غير مصدر الشريعة الحكومية، وغير مصدر النعمة والتغلب بين الغاصب والمغصوب، والعادي والمعتدى عليه؛ وذلك هو مصدر الهداية النبوية في بيئة وسطى، تهيأت لها حماسة النفوس في البادية، وشعور النفوس بقيمة العهد ورباط الأمانة في كل علاقة واسعة، كالعلاقة التي ترتبط بالقوافل المترددة على مسافات بعيدة.

ومما وُفقتُ إليه، مغتبطاً بهذا التوفيق، أنني اهتديت إلى حكمة هذه الظاهرة في سيرة الخليل إبراهيم، وسيرة محمد، والمسيح - عليهم السلام، وكل هذه السير ظهر في حينه، فظهر من استقبال العالم له، أنه لم يكن رغبة من رغباتي القوية وحسب، بل كان علي التعظيم رغبة قوية لقراء العربية في مختلف الآراء والنحل، لا نحسبها برزت في استقبال كتاب حديث، كما برزت في استقبال هذه الكتب الثلاثة، مما ألفناه خلال السنوات الأخيرة. وكان من الواجب

أن تظهر هذه الطبعة من هذا الكتاب قبل الآن، لولا أن الفترة الأخيرة قد ازدحمت بالمؤلفات والكشوف الأثرية، التي تستمهل كل مؤرخ للسيد المسيح ولعصر الدعوة المسيحية، أملاً في الوقوف على جديد يُضاف إلى تاريخ الداعي أو تاريخ الدعوة، أو توقعاً لتوكيد شيء من القديم يحتاج إلى توكيد أو إلى تعقيب.

الشجرة المباركة

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَاللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوتٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ النور: ٣٥ .

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْثَرَهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ الأنعام: ١٤١ .

قَالَ تَعَالَى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ وَمَنْ كَلَّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ النحل: ١٠ - ١١ .

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ التين: ١ - ٣ .

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ عبس: ٢٤ - ٣٠ .

هذه هي الشجرة المباركة في التنزيل: شجرة الزيتون، شجرة البحر الخالد، شجرة الحوض الذي نبتت عليه حضارة الإنسان ودارت حوله، ولا تزال تدور، عالية تعلو خمس قامات وتزداد، باقية تبقى خمسة قرون ثم لا تصير إلى نفاذ، كريمة تؤتي من ثمراتها ما تشتهيهِ الأنفُس وتشتهي به طيب الطعام، سعيدة تؤتي من عصيرها النور والطب ومسوح الإهاب وجبائر العظام، ومن خشبها صور المحارِب وأعواد المنابر، ومن ورقها أكاليل الأبطال وتحيات البشائر، وتشابهه بركتها على الأبطال الأقدمين فيتمسحون بطيها طلباً لقوة النفس وقوة الجسد وهم يقبلون على الصراع ويتناضلون، وتشابهه بركتها عليهم كرة أخرى فهم يعلنون السلم، ويرفعون غصن الزيتون!

بُوركت في وحي المعابد والضمائر، وبُوركت في رموز القرائح والخواطر، فلم يعرف النَّاس أُمْنِيَةً لا يرمزون لها بسماها وأسمائها، ولم يذكروا نعمة لا يذكرونها بنعماها: رمزوا بها إلى الضياء، ورمزوا بها إلى السلام، ورمزوا بها إلى الخير والرخاء، وتزودوا منها في البادية والحاضرة، وادخروها للدنيا والآخرة، واتخذوها للمصايح في محارِب الصلاة والتسبيح، ورجعوا إليها باسمٍ من أقدس الأسماء، وهو اسم «السيد المسيح».

لأمرٍ ما نبتت في فلسطين، وانتشرت منها في منابت العالمين، وعلى نحو من هذا وهبت مسحتها للرسول الأمين، فطافت رسالته حيث طافت، من عليين إلى غايتها من البلاغ المبين. ولو لم تكن «للزيتونة» إلا أن هذا الاسم المبارك مردود إلى مسحتها وبركتها، لاستحقت به الخلد المصون، خضراء على مدى السنين والقرون.